أحمد شوقي والصراع البلاغي للحضارات

شعرية الدهشة

ناظم عودة

قف بروما وشاهد الأمر واشهد إن للملك مالكاً سبحانه
دولة في الثرى وأنقاض ملك هدم الدهر في العلا بنيانه
مزقت تاجه الخطوب وألقت في التراب الذي أرى صولجانه
طلل عند دمنة عند رسم ككتاب محا البلى عنوانه

-1-

المواد التالفة

كيف يبني أحمد شوقي قصيدته؟ ذلك هو السؤال البسيط الذي ترغب هذه الدراسة في الإجابة عنه. لكن الإجابة ليست ببساطة التساؤل، فثمة أدوات ومواد، يجهد الشاعر نفسه في جمعها لإنشاء العمل الشعري. غير أن القارئ لا يلحظ عملية الجمع والتحضير، بل يلحظ العمارة الشعرية وقد بسطت أطرافها على الورق. وعندما كان القارئ يحيا في عصر الإنشاد الشفاهي، فإن هندسة القصيدة كانت تتمثل تمثلاً متخيلاً في ذهنه.

إن المواد اللغوية والأسلوبية التي يتلفها الشاعر، والمواد التي يبقي عليها، تعد إرشيفاً سيكولوجياً، مفعماً بالإشارات، ولا يمكن الاستغناء عنه مطلقاً. لقد كانت الدراسات الشعرية لا تمل من الخوض في مسائل جد معقدة في الشكل والأسلوب واللغة والبلاغة والدلالة والإيقاع، وإلى ما هنالك من عناصر ظاهرة في شكل القصيدة. لكن البحث عن أثر ذي معنى في المواد التالفة لم يكن ليحظى بالعناية ذاتها من لدن الدارسين التقليديين. بعكس الدراسات الحديثة، التي باتت تقف بريبة أمام تلك المواد في محاولة للبحث عن المركز الحقيقي للنص.

-2-

موجهات خارجية

في قصيدة (روما) يكشف أحمد شوقي النقاب عن بعض هذه المواد، ولا يعني ذلك أن هذه القصيدة وحدها التي تنطوي على تلك المواد المحفزة على النظم، أو ما يمكن أن نطلق عليه (التاريخ النسي) لنشأة القصيدة، ولما الكل واحدة تاريخها النسي.

يوسعنا أن نصف أحمد شوقي نفسه بأنه مملكة شعرية مترامية الأطراف، لها إمبراطوريتها البلاغية، وأجراسها التي لا تكف عن الإنشاد في حضن الطبيعة والتاريخ. ولأنه كذلك أراد أن يطلق على رؤوس الأشهاد أن "الشعر بين البوين: التاريخ والطبيعة (ص ٢٣٠ الشوقيات، ج١ - مكتبة الترقية - بيروت 1994]. وعندما انطق أحمد شوقي بهذه الفرضية فإنه أدلى بها في سياق رسالة شخصية أرسلها إلى صديقه المؤرخ (إسماعيل بك رأفت)، يعد أن طاف في بلاد الروم وأبصر ما فيها من آثار ومآثر. كما يصرح في رسالته أيضاً عن باعث آخر على نظم هذه القصيدة، فقال موجهاً كلامه إلى صديقه المؤرخ: «فوقفت تأمل ذا الجدار وذا الجدار، وأنشد ذلك القصر وتلك الدار، إلى أن ثار الشعر.. فنظمت، وكأني بها في يديك تقرأ (ص ٢٣٠]. ولكن علينا أن لا نطمئن كثيراً إلى ما يقوله أحمد شوقي، فبواعث النظم المضمرة تحوط نفسها بحجب ليست شفافة في أحيان كثيرة، تختبئ عيون الشعر خلف تلك الحجب، وتختبئ مقاصد الشاعر الحقيقية أيضاً في الكمان نفسه. فالقصيدة إجمالاً، ليست نظم قصيدة بالنسبة لأحمد شوقي، بل تدوين موقفه مما وقعت عيناه عليه من آثار تاريخية.

-3-

تأويلات شرقية

يعطي أحمد شوقي أربعة تفسيرات لما جرى لامبراطورية الرومان، لكن هذه التفسيرات لا تستند إلى حجة عقلية، وإنما تخضع لعوامل ثقافية ودينية وزمانية وسياسية لا تقترن إقتراناً مباشراً بانهيار هذه الامبراطورية. ولأن هذا الشاعر من الشرق، والقصيدة عن الغرب فإنه ينقل إلى هؤلاء القوم حكمة الشرق في تفسير الوقائع التاريخية الكبرى، حكمة الشرق الموروثة التي ترى أن قوى غيبية تكمن وراء ذلك، وأحمد شوقي الشرقي المسلم، يرى أن تلك القوى ما هي إلا المشيئة الإلهية. لو كان الغرب يفسر حدثاً شرقياً كبيراً، فمن المؤكد أنه لا يميل إلا إلى حجة مادية وعقلانية وموثوقة بوثيقة، تدعم التفسير. لعل أحمد شوقي يرغب في مشاكلة الغرب، نكاية بموقف حضاري غربي من الشرق عموماً، كأن يفسر حج الرأي الذي يرى أن الأيام دول، وهو رأي ومعتقد شرقي إسلامي لا شك في ذلك، وماسة التغير الآسنة إلهية. ولذلك فإن أحمد شوقي، لا ينقل خبراً بل يقرر حالاً، ويطلب من القارئ أن يؤمن به. وتعضيداً لهذا الطلب الشرقي الذي يوجه إلى قارئ غربي بالضرورة، فإن أحمد شوقي يضاعف في جملته الشعرية التي يفتتح بها قصيدته الأساليب الشرقية في الخطاب الشعري، فقف (إعادة للشعراء الجاهليين في استيقاف الصحب)، شهد (الشهادة فركن الأساسي للتعبد والإيمان)، فالملكية الإلهية للملك الأول هي ملك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (آل عمران "26")، كلمة التزيه الإسلامية [سبحانه]. وهكذا، فالتفسير، كما يبدو معاملات أنفاً، هو وجهة النظر الإسلامية الشرقية لانهيار ملك، ونشوء ملك آخر مكانه. ويتبين من خلال قصيدة أحمد شوقي، أنه استدرك على ما قاله في البيت الأول، فأضاف تفسيراً (ثالثاً) لكي يلج إلى القارئ الغربي فإن هذا التغيير الذي حدث للملك الروماني هو من فعل الطبيعة، وبذلك يضمن أحمد شوقي الشاعر الشرقي، الذي قضى في بلاد الغرب شطراً من حياته، قناعة القارئ الغربي ويرضي فضوله الثقافي. بل يرضي نزعة شائعة في الغرب، تفسر الأشياء بما فيها الدين والإله تفسيراً طبيعياً. بيد أن عين أحمد شوقي لم تفارق صديقه (المؤرخ) فأراد أن يرضيه هو الآخر، وما دام هذا الصديق مؤرخاً فإن تفسير الانهيار بحجة الخطوب، تلك الكلمة الجامعة لأنواع الحوادث التاريخية من حروب وكوارث وانتكاسات، هو التفسير الأكثر رواجاً. هذا ما عبر عنه البيت الثالث من القصيدة، ولكن بنوع من التقاضي الحضاري لدولة كان لها صولات وجولات على تخوم البلاد العربية والإسلامية. كان هذا المعنى يصوغه أحمد شوقي صوغاً بلاغياً عالياً، لأنه انتبه مرة أخرى، فوجد نفسه وقعاً أسير السرد التاريخي، فانتفض للشعر على حساب خصمه اللدود النثر، الذي ينتعش في السرد، بل هو عنصر مميز له عن الشعر. كأن أحمد شوقي يجد في الاستعارة [مزقت، أنصت] وفي المجاز [تاجه، صولجانه] فرصة مناسبة لتمريغ مجد الامبراطورية الرومانية في تراب الزمن.

مزقت تاجه الخطوب وألقت

في التراب الذي أرى صولجانه

وعندما نصل إلى البيت الرابع، سنكون أمام حال غريبة فعلاً، كيف نفسر انهيار الامبراطورية الرومانية، الشهيرة بالعمران في الحطام، أو في - ميز التواليت - وآخرها في المرآة الصغيرة، التي تتكئ، قرب وسادة السرير، وهن يتفقدن القسمات الأخيرة على الشفاه وكحل العيون، عندما كن يتهيأن للنوم، وهر بن فجأة مذعورات كالغزلان التي تطاردها كلاب الصيد!

هاجر هو الآخر، إلى مدينة لا عهد له بها، تاركاً العربة، ووجه أمه، الحنط منذ سنوات في المرآة الصغيرة لصندوق السيسم الذي بقي راقداً في مدينته، قرب فم الشط المفتوح على الخليج.

أذهلته البنايات العالية، والشوارع الواسعة، والمحال التجارية والبارات والمطاعم، ضائعاً في زحمة هذه الأماكن وحركة الناس والمركبات السريعة، لذا لم يستطع أن يبني مثل علاقاته السابقة مع أناس هذه المدينة، التي فاجأته بسعتها، ونمط حياتها، الذي انتزع منه كل شيء، وتساءل مع نفسه التي هدها التعب:

-أين أنت يا أباخيون؟

هكذا يكنونه في مدينته التي تركها أطلالاً!

- لن تبلغ المأساة بعد، فالخوف كل الخوف، أن يضيع من ذاكرتك حتى الأسم!

وعلى مر السنوات التي تلت، هزل جسم ذلك الرجل الضخم البسيط، وراح يستعطف الوجوه بصمت قاس خدش عفة كل أيام العمر، وهو يطيل الوقوف على الساقين اللتين لم تعد صلبتين، أمام واجهات المطاعم والبارات المصطفة على جانبي شارع الوطن في العشار، حاسر الرأس عن لفائف خشنة من الشعر الأبيض، بلاكوفية أو قبعة الكاوبوي القديمة، منبهراً ومستغرباً من قهقهات الآخرين، كإنبهار صاحب الحمار المحفورة صورته على الصندوق الذي تركه هناك.

وفي آخر الليل يحشر نفسه، في أحد ملاجئ الأكياس الرملية المهيأة على طول شارع الكورنيش، إمتداداً من تمثال - غريب على الخليج - بمحاذاة الشط.

وكثيراً ما تعرض للتساؤلات عن هويته وسكنه، عندما خلت الشوارع والأزقة وأكثر البيوت من الناس حتى في هذه المدينة هي الأخرى، عدا بعض الأصوات البعيدة، لكعوب أحذية جندي قادم من جبهة الحرب، أو لآخر ذاهب إليها عبر (التومة) للالصقة للجدار الناري طيلة سنوات!

أين تلك الأصوات للكعوب التي تتسرب إليه من خلال الفتحات لصغيرة المواجهة للشط، وهو بين الأكياس الرملية فتثير بداخله الوحشة والغربة، من صوت إيقاعات طبلته بمعية أغنيات البحارة، وهي تتسرب للمارة من الكوة العليا لصريفته الطة على الزقاق الترابي في كل الليالي، مثيرة الطمأنينة والفرح الشفيف، في مدينته التي بقيت هناك تحتضن طيف أمه داخل الصندوق بمعية ثوبها الهاشمي وكيس الحذاء الصغير..

هدية صفية!

وتساءل بلوعة:

-أين أنت يا صفية؟

ومديده على شاربه الكث (عندما رأى بالة عرس تملأ واجهة أحد العارض في شارع الوطن).

فتحس حزمة السنين التي مرت، والعمر الذي راح، العمر الذي انساب في الزمن، كانسياب مياه الساقية القريبة التي تفصل بيتها وهما يتهامسان عبرها، من خلال فتحات خص القصب تحت ضوء القمر الليالي، التي انتهت كالحلم، عندما رآها آخر مرة ونوع من الفرح في عينيها:

-غداً العيد ما ستلبسين يا صفية؟

ألقت بنظراتها على صفحة المياه الناسبة بهدوء في الساقية التي بينهما فانعكست دشداشتها القديمة، الحاطة الرقبة والصدر بالدانتيل الأبيض، التي لامست عيونهما بفرح مرتبك، يوحي بأن الفقراء لا يشعرون بفقرهم، عندما يؤخذون بغنى العشق وبهجته الذي لا تسعه قلوب الدنيا، وكفرفشة الأوزات البيض عندما يجتاحها فرح الفتاء بمياه السواقي في الصباحات الباكرة!

وكم تمنى أن يلف نفسه بدفء ذلك الثوب، فقد بدا جسمه ينهار أمام لسعات برد كانون، ونسائمه الأكثر برودة لطالعة من الشط القريب، وكلها تحمل، كل رطوبة وبرودة فضاءات مياه الخليج، فتسري الرجفة في كتفيه، وزنديه الكرشتين إلى ساقيه وقدميه العاريات.

ويخطف نورس وهو يطلق أصواتاً منهكة ومدماة بفجيعة ضياعه وبحثه للضني عن عشه وأشاه، حافاً وسط الظلام ذلك - الغريب على الخليج - لتنتصب على حافة الشط وتلك السفن العارية من الأشرعة التي هجرتها البحارة والأغنيات، وهذا السمرة عيناه على سعتهما باتجاه كراج مدينته القديم، قرب ساحة أسد بابل، الذي هجرته الركبات منذ سنين، وهو يحلم متجولاً في شوارعها بعربته ذات الأشرطة اللونة المتلئة بالأطفال في العيد.. تكن نهايته هناك على تخوم البحر، محمولاً في عربته داخل صندوق السيسم، وهو ملفوف بثوب أمه الزركش، الحاط بالدانتيل الأبيض لثوب صفيه..

وتسائل:

-ألا تحمل نعوش الملوك على العربات؟!

شعر بملوحة الدمعة، وهي تخترق شاربه، ورد دبهمس متعثر بنشيج الروح:

-أنا أبو خيون، أبجي!!

وعندما واجه امتداد الشط، ردد ها بأعلى صوته، ثانية.. وعاشرة، خوفاً أن ينسى اسمه!

فجاءه الصدى مختلطاً بصوت - مريام الزبير!

قصة قصيرة

مرزوك والإيقاعات الضائعة!

عبد الحسين العامر

إلى كاظم الحجاج

-1-

كل الناس من أهل الدينة، تلك الدينة الساحلية الرمية على تخوم البحر منذ زمن بعيد، لن ينسوا عربة الخشب، الزدانة بالأشرطة والشراشيب الصابيح اللونة للعطوبة، العلقة بالخيوط طعم بعض الأعلام الورقية، وهي ممتلئة بالأطفال في العيد، جلوساً في الأحضان، قرفصاء، وقوفاً، لا يهم ضيق الكان فمساحة الفرح في داخلهم واسعة، تدفعها القدمان الخشنتان لذلك الرجل الضخم الفاحم اللون، صاحب الوجه التميز بالعينين لحمر اوين، إحداهما ذات حول، وأنف كبير واسع للنخرين، تحتهما شارب كث، قريب الشبه بشارب الممثل الكوميدي اللبناني - شوشو - وهو يتجول بهم وسط إيقاعات طبلاتهم في شوارع مدينتهم الفاو.

تلك الدينة التي تعج بحركة الناس، وصخب أصوات البواخر المصطفة على رصيف ساحلها قبالة السوق الكبير، أو القادمة من البلاد البعيدة وخلفها حشود النوارس لختلطة أصواتها هي الأخرى بأصوات بحارة سفن الصيد القادمة هي أيضاً من سواحل الخليج، نحو مراسيها في تلك الدينة الساحلية المحصور قبين لسان خور عبد الله غرباً وشط العرب شرقاً.

يرتدي ذلك الرجل البسيط صاحب العربة، ذو الذراعين الفتولتين والساقين الصلبتين، في الأيام الباردة، سترة كبيرة جداً، تصلح أن تكون معطفاً لذوي الأجسام الاعتيادية!

كما يعتمر رأسه أحياناً، كوفية حمراء مرة، وبيضاء في أوقات أخرى، وأحياناً يحلو له أن يضع على رأسه قبعة كاوبوي قديمة، وهو يطلق التعليقات للرحة أثناء تجواله في شوارع وأسواق الدينة، فهو ذو علاقات فكهة وسلسة مع الكثيرين من الأطفال والنساء والرجال.

ثم يبدأ ذلك الرجل على أهل مدينته بنقل أطعمتهم في أفراحهم، وفي التأم في مواسم أحزانهم الدينية مجاناً. كما يكثر من تعاطفه مع التسولين الذين يقتعدون جسر البلدية الرئيس - البوابة الجنوبية لسوق الدينة - أثناء مروره وهو يدفع بعربته الثقيلة.

ذلك الجسر الكونكريتي المنتصب على النهر المتفرع من شط العرب قبالة رصيف الميناء والمتجه غرباً نحو عمق الدينة، المرمية على حافة جرفي مدخله بعض النجات والقوارب التي حطمتها سنوات مواسم الصيد والسفر، أو التهمة بالتهريب، والتي غطت ألواحها الجانبية المتآكلة، الأصداف والقواقع وبداخلها المتلئ بالطمي المتراكم، أعداد من السرطانات البحرية التي تختبئ مسرعة في الثقوب كلما خطفت النوارس باحثة عن طعامها لحظة ارتفاع ماء المد القادم من الشط برائحته المميزة، التي هي مزيج من رائحة الغرين والأسماك والنباتات البحرية المحمولة معها من أعماق البحر مرور أبالخليج.

وطالما عرف البحارة وصيادو الأسماك المنتشرون على جرف الشط داخل (سوابيط) مفتوحة الجوانب - أبراجهم الساحلية - موعد ارتفاع المد القبل وصوله من خلال تلك الرائحة التي تدفعها الرياح الجنوبية الرطبة القادمة من مصبات الخليج أثناء الصيف القائظ وبدايات الخريف، تتقدمها أصوات النوارس والقطرس والبجع وطيور مائية أخرى، فيسرعون إلى تهيئة الشباك والقوارب.

وكثيراً ما يترك ذلك الرجل الفاحم اللون عربته ويقف على ذلك الجسر، وهو يرمي بقطع لخبز لجاميع النوارس السابحة أو الحلقة في فضاء النهر، فتزدحم حولها محدثة ضجيجاً تختلط فيه الأصوات ورفيف الأجنحة وسط رذاذ الماء المتطاير.

وما تبقى من فتات الخبز لخارج من دائرة الصراع تلك، تسحبه الموجات الصغيرة نحو الجرف أو تحت الجسر، حيث تزدحم عليها أسماك الزوري.

وفي أكثر الأحيان ينزل إلى النهر سابحاً بالقرب من حشد الطيور وهو يواصل رمي قطع الخبز فتزدحم حوله بأعداد أكثر. وعندما يعود في الساعات المتأخرة إلى بيته، بيته الذي لم يعد، سوى صريفة واحدة من القصب، أرضيتها مفروشة بقطع الكارتون لسميك، تيكورها بشبه عربته أثناء العيد، مضافاً لها فراش ينتحي جانباً منها!

وفي الجانب الثاني القابل لفراشه، تصطف مجموعة من قناني العرق وزجاجات البيرة الفارغة، حتى تبلغ الزاوية القابلة للباب، حيث ترتكن صفيحة من التنك، وضع عليها فانوس، وسراج نفطي يدفئ به جادة الطبلة، وعلبة زجاجية كبيرة هي قدحه المفضل في الاحتساء عندما يكرع منها حتى الهزيع الأخير من الليل!

وعلى الجدران موزعة بشكل غير منتظم، مجموعة من صور النجلات لبعض المطربين والمطربات، وصورة لحشود من النوارس تحف بحار قمر الوجوه، تنم ملامحهم عن انتمائهم لمدن الساحل الهندية وبعض دول الخليج، عراة إلا من بعض الأزر في وسطهم وهم في مقدمة لنجاتهم يرمون بالحبال إلى الشاطئ، وبعضهم يطوي الأشرعة للتعبة من السفر!

وهم يرددون - على ما يبدو - أغنيات فرح الوصول إلى الشواطئ، التي طالما تحسس إيقاعاتها مثيرة النشوة بداخله، فيشاركهم الغناء والرقص على نقر طبلته في أكثر الليالي.

تتوسط تلك الصور الملونة، قطعة كارتون، كتب عليها بخط مرتبك عبارة (حالالي، ملكي.. أبجي) يرددها دائماً مع نفسه، أو بشكل مسموع، فيجامله البعض بتنغيمها أثناء تجواله في شوارع وأسواق الدينة، فيشعر بالنواساة، دون أن يعرفوا، كم من الأسى الدفين الذي تثيره بداخله تلك الصيحات!

أما في الجانب القابل للباب مباشرة، بين طرف فراشه وصفيحة التنك، يرقد صندوق كبير من خشب السيسم القديم، المرصع الجوانب بالأقراص النحاسية بحجم مسطوح السامير الصغيرة للسماء، مكونة تشكيلات ورسومات على هيئة: أقمار ونجوم ونخلة.. ونخلات بعيدة.

وفي الواجهة العليا للصندوق حفرت بدقة متناهية مجموعة أخرى من الصور للطرزة باللون الفضي، الذي أعطاها وضوحاً أكثر على شكل: كلاب صيد خلف غزلان قافزة، وطيور مهاجرة تحتها مائدة فاكهة يتحلق حولها لجواري الرافعات الأقداح بأذرع مكشوفة، يتوسطهن أحد الأمراء، وفي حضنه أحلاهن، وقدحها يلامس قدحه المرفوع أيضاً!

وفي الزاوية البعيدة من هذه التكوينات، يقف حمار متعب وبجانبه رجل رث للابس، ونظراتهما موزعة، بين كلاب الصيد والنائلة، وهو منبهر كما يبدو بلزدحام كركرات لجواري، واستغاثة الغزلان المرتعبة، وصوت رفيف الطيور للهاجرة!

وكلما أمعن النظر في ذلك الصندوق في لحظات استذكار دائمة، يداهمه بترديدات لذيذة، صوت والدته، وأصابعها منشغلة بتداخل خوص السعف الصبوغ، لتصنع منه حصيراً، وهي تعد ببنت لجيران صفية:

-هذا الصندوق هدية لزواجكما!

لحلم الذي عمره ألف ليلة وليلة، قبل أن يأتي بهذا الصندوق، حافلاً إياه على ظهره من تلك المسافات البعيدة، وهو ممسك بقوائمه الأمامية الصغيرة، وكأنه يمسك بيدي والدته وصفية:

-أمسكا جيداً، سأوصلكما بأمان!

تاركاً قريته متجهاً نحو الجنوب مستقراً في تلك الدينة المستلقية على حافة البحر.

وكلما عاد في الساعات المتأخرة، وهو يدفع بعربته على امتداد الشارع المتفرع من السوق عبر الجسر، نحو الشارع الرئيس المتد من بوابة الميناء باتجاه وسط الدينة مرور أبالبلدية، ومنتدى النفط حتى نهاية بيوتها الصغيرة على مشارف صحراء اللح غرب الدينة، الذي يجتازه في هدأة كل الليالي باتجاه بيته، يردد بصوت شجي بعض الأغاني الريفية والخليجية التي ينفرد بها الناي وإيقاعات الدفوف المتلاحقة فيتوزع صوته على البيوت القريبة، غامراً إياها بالدفء المؤنس!

كما يسمع المارة بالقرب من بيته في الليالي المتأخرة، من الكوة الصغيرة في أعلى مثلث الصريفة، صوتاً يتسرب خفيضاً، اقتص الإيقاع، من الطبلة التي يتكئ عليها بهدوء، بعد أن يدفئ جلدتها على ذبالة السراج النفطي.

-2-

وعندما تثقبت البيوت، والشوارع، والذكريات بالأصوات المرعبة ذات يوم:

تركت النساء وجوهها في المرايا.. كل المرايا، التي في الحمام، أو في - ميز التواليت - وآخرها في المرآة الصغيرة، التي تتكئ، قرب وسادة السرير، وهن يتفقدن القسمات الأخيرة على الشفاه وكحل العيون، عندما كن يتهيأن للنوم، وهر بن فجأة مذعورات كالغزلان التي تطاردها كلاب الصيد!

هاجر هو الآخر، إلى مدينة لا عهد له بها، تاركاً العربة، ووجه أمه، الحنط منذ سنوات في المرآة الصغيرة لصندوق السيسم الذي بقي راقداً في مدينته، قرب فم الشط المفتوح على الخليج.

أذهلته البنايات العالية، والشوارع الواسعة، والمحال التجارية والبارات والمطاعم، ضائعاً في زحمة هذه الأماكن وحركة الناس والمركبات السريعة، لذا لم يستطع أن يبني مثل علاقاته السابقة مع أناس هذه الدينة، التي فاجأته بسعتها، ونمط حياتها، الذي انتزع منه كل شيء، وتساءل مع نفسه التي هدها التعب:

-أين أنت يا أباخيون؟

هكذا يكنونه في مدينته التي تركها أطلالاً!

- لن تبلغ المأساة بعد، فالخوف كل الخوف، أن يضيع من ذاكرتك حتى الأسم!

وعلى مر السنوات التي تلت، هزل جسم ذلك الرجل الضخم البسيط، وراح يستعطف الوجوه بصمت قاس خدش عفة كل أيام العمر، وهو يطيل الوقوف على الساقين اللتين لم تعد صلبتين، أمام واجهات المطاعم والبارات المصطفة على جانبي شارع الوطن في العشار، حاسر الرأس عن لفائف خشنة من الشعر الأبيض، بلاكوفية أو قبعة الكاوبوي القديمة، منبهراً ومستغرباً من قهقهات الآخرين، كإنبهار صاحب الحمار المحفورة صورته على الصندوق الذي تركه هناك.

وفي آخر الليل يحشر نفسه، في أحد ملاجئ الأكياس الرملية المهيأة على طول شارع الكورنيش، امتداداً من تمثال - غريب على الخليج - بمحاذاة الشط.

وكثيراً ما تعرض للتساؤلات عن هويته وسكنه، عندما خلت الشوارع والأزقة وأكثر البيوت من الناس حتى في هذه الدينة هي الأخرى، عدا بعض الأصوات البعيدة، لكعوب أحذية جندي قادم من جبهة الحرب، أو لآخر ذاهب إليها عبر (التومة) للالصقة للجدار الناري طيلة سنوات!

أين تلك الأصوات للكعوب التي تتسرب إليه من خلال الفتحات لصغيرة المواجهة للشط، وهو بين الأكياس الرملية فتثير بداخله الوحشة والغربة، من صوت إيقاعات طبلته بمعية أغنيات البحارة، وهي تتسرب للمارة من الكوة العليا لصريفته الطة على الزقاق الترابي في كل الليالي، مثيرة الطمأنينة والفرح الشفيف، في مدينته التي بقيت هناك تحتضن طيف أمه داخل الصندوق بمعية ثوبها الهاشمي وكيس الحذاء الصغير..

هدية صفية!

وتساءل بلوعة:

-أين أنت يا صفية؟

ومديده على شاربه الكث (عندما رأى بالة عرس تملأ واجهة أحد العارض في شارع الوطن).

فتحس حزمة السنين التي مرت، والعمر الذي راح، العمر الذي انساب في الزمن، كانسياب مياه الساقية القريبة التي تفصل بيتها وهما يتهامسان عبرها، من خلال فتحات خص القصب تحت ضوء القمر الليالي، التي انتهت كالحلم، عندما رآها آخر مرة ونوع من الفرح في عينيها:

-غداً العيد ما ستلبسين يا صفية؟

ألقت بنظراتها على صفحة المياه الناسبة بهدوء في الساقية التي بينهما فانعكست دشداشتها القديمة، الحاطة الرقبة والصدر بالدانتيل الأبيض، التي لامست عيونهما بفرح مرتبك، يوحي بأن الفقراء لا يشعرون بفقرهم، عندما يؤخذون بغنى العشق وبهجته الذي لا تسعه قلوب الدنيا، وكفرفشة الأوزات البيض عندما يجتاحها فرح الفتاء بمياه السواقي في الصباحات الباكرة!

وكم تمنى أن يلف نفسه بدفء ذلك الثوب، فقد بدا جسمه ينهار أمام لسعات برد كانون، ونسائمه الأكثر برودة لطالعة من الشط القريب، وكلها تحمل، كل رطوبة وبرودة فضاءات مياه الخليج، فتسري الرجفة في كتفيه، وزنديه الكرشتين إلى ساقيه وقدميه العاريات.

ويخطف نورس وهو يطلق أصواتاً منهكة ومدماة بفجيعة ضياعه وبحثه للضني عن عشه وأشاه، حافاً وسط الظلام ذلك - الغريب على الخليج - لتنتصب على حافة الشط وتلك السفن العارية من الأشرعة التي هجرتها البحارة والأغنيات، وهذا السمرة عيناه على سعتهما باتجاه كراج مدينته القديم، قرب ساحة أسد بابل، الذي هجرته الركبات منذ سنين، وهو يحلم متجولاً في شوارعها بعربته ذات الأشرطة اللونة المتلئة بالأطفال في العيد.. تكن نهايته هناك على تخوم البحر، محمولاً في عربته داخل صندوق السيسم، وهو ملفوف بثوب أمه الزركش، الحاط بالدانتيل الأبيض لثوب صفيه..

وتسائل:

-ألا تحمل نعوش الملوك على العربات؟!

شعر بملوحة الدمعة، وهي تخترق شاربه، ورد دبهمس متعثر بنشيج الروح:

-أنا أبو خيون، أبجي!!

وعندما واجه امتداد الشط، ردد ها بأعلى صوته، ثانية.. وعاشرة، خوفاً أن ينسى اسمه!

فجاءه الصدى مختلطاً بصوت - مريام الزبير!

ماكيبا - مغنية الشرقين في العراء وبيوت الصفيح:

أنا أبو خيون، أبـ.. جي..

نهض متحاملاً على نفسه، وسط هذا الليل، بقامته الديدة التي بدا عليها الهزال على صوت إيقاع خزنه بداخله طيلة السنوات التي مرت، فمرزوك جاهز للرقص حتى الموت، إذا سمع صوت الإيقاع!

فبدأ بحركة من الأكتاف التي لفها البرد، إلى خصره الناحل، وكلما يعلو صوت الإيقاع التفجر بداخله، تنشط حركة الأكتاف والخصر، وينشط معهما، صوت مغني الموال، الذي يتوسط مجموعة أصحاب الإيقاعات والدفوف عادة، في تخت فرق خشابة البصرة وبعض سواحل الخليج:

(بدني بين الفرح ممشا عمر وهموم)

(----------)

وعندما يسرع صوت (الدوشكا) خلف الضفة الأخرى من الشط الملاصقة للجدار الناري يسرع الإيقاع الذي خزنه بداخله طيلة سنوات، ويبقى في تصاعد مستمر، إلى أن يختفي ذلك الصوت القادم من خلف الضفة الأخرى، في صدى صوت مجموعة السمار وسط الإيقاعات للتلاحقة ونغم العود:

(يا طيره طيري يا حمامه..)

(----------)

وبضربة واحدة من كل الإيقاعات، يقفز نحو الأعلى، ويهبط منها بذلك، رقصته الأخيرة.. بلا حراك!

لحظتها حلقت حوله مجموعة من النوارس، كانت في طريقها نحو الجنوب حيث مدينته الستلقية على حافة البحر.. فحملته على أجنحتها ورحلت!

أبو الخصيب

ملاحظة توثيقية/

أفاد شهود عيان:

في صباح شتائي مبكر، وجد مرزوك نائماً نومته الأبدية، وهو شابح العينين باتجاه كراج مدينته المهجور، وحوله بقع من ماء مطر الليلة الماضية وعلى مقربة منه، نصف صمونة، وقطعة سائبة تتحرك نحوها ببطء. موزعة نظراتها، بين جندي متعب عائد من بعيد، وبين أبي خيون المدد قرب الرصيف قبالة الكراج خلف ساحة أسد بابل، وبعد نهار كامل.. دفن في مقبرة على حواف صحراء الزبير!